الهوية العراقية وآفاق البديل الديمقراطي

د. ميثم الجنابي

اتخذت الدولة في العراق منذ البدء هيئة الدولة- المدينة. بمعنى مدنيتها التاريخية. من هنا جوهرية القانون والأخلاق في بنيتها الذاتية. مما أعطى للغة فاعلية جوهرية بالنسبة لتراكم الإبداع العلمي والعملي. وليس مصادفة أن تنتخب اللغات المنتشرة فيه لغة واحدة للخطاب الثقافي لمختلف أقوامه، وان تتغلغل فيها وتنتقل من حضارة لأخرى، بوصفها النسيج الحي لتراكم وعيه الذاتي، كما هو جلي في الآرامية والعربية. وهو تراكم يعكس في جوهره طبيعة البنية الثقافية السياسية لوعيه التاريخي الذي كان يتطابق عموما مع شعور الإنتماء إليه.

(٢)

ولم يكن هذا الشعور في الواقع، سوى الصيغة الوجدانية لهويته الثقافية السياسية. بعبارة أخرى، إن الجوهري في تكون العراق منذ البدء لم يكن مرتبطا بالعرق والقومية كما هي. فقد كانت جوهرية الانتماء فيه وله، الوجه الآخر للبعد الثقافي السياسي في بناء الدولة وتقاليدها الاجتماعية والحقوقية وقيمها الأخلاقية. وهو الأمر الذي فتت وفكك منذ البدء بؤرة الانتماء العرقي والقومي الضيق، وجعل من الممكن وحدة وتسلسل الحضارات والشعوب والأمم في تاريخه، بوصفها حلقات في سلسلة تاريخه الثقافي.

فالهوية الثقافية السياسية للعراق هي سلسلة تتكون حلقاتها من حضارات سومرية وبابلية وآشورية وعربية، إضافة إلى مكونات جزئية عديدة شاركت فيها مختلف الأقوام والشعوب قديما ومعاصرة من عبرانيين وإيرانيين وتركمان وأكراد، وكذلك مساهمات تنوعت من حيث مداها ونوعيتها من جانب أقوام وأمم وثقافات اضمحلت مكوناتها المباشرة كما هو الحال بالنسبة للحيثيين والإغريق والتتر المغول والأتراك العثمانيين وكثير غيرهم. كل ذلك يشير إلى تنوع وتداخل مختلف المكونات في نسيج وعيه الذاتي.

وقد أدى ذلك إلى أن تتبلور في مزاجه الاجتماعي وعقائده الكبرى نظرة ثقافية إلى كل هذه المكونات، على انها أجزاء منه أو مكونات لها قيمتها التاريخية والوجدانية، أي أننا نلاحظ غياب مزاج الرؤية العدائية أو الموقف من مكوناته الجوهرية والإضافات الكبرى لها. بمعنى ضعف الرؤية التي تنظر إلى أي حلقة من تاريخه على انها جزء من تاريخ (استعماري) أو (احتلال). مع انها مكونات غير متكافئة من حيث أثرها الفعلي بالنسبة للعمران المدني والثقافي والعلمي في تاريخه. وهو واقع نلمس أثره في انصهارها المتنوع في نسيج الوعي الثقافي العراقي.

إنها عملية يمكن تفسيرها جزئيا بتقاليد الشعوب السامية الكبرى ذات النزعة الكونية والإله الواحد. غير أن حدها وحقيقتها الفعلية تقوم في كيفية حل إشكالية الطبيعي والماوراطبيعي في الفرد والجماعة والدولة والثقافة. فقد كانت الحضارات الكبرى في العراق بدءاً من السومرية وانتهاء بالعربية تتكامل في كينونة ثقافية مستعدة على الدوام لحل إشكالية الطبيعي والماوراطبيعي معايير ومقاييس الانتماء الثقافي لا العرقي والقومي الضيق. ووجد ذلك صيغته المثلى في سيادة الآرامية في لغة الخطاب الثقافي بين الأمم لقرون عديدة في كل أرجاء العالم المتحضر للمنطقة، ثم استتبعتها لاحقا وتمثلت تقاليدها العربية. وهي ظاهرة لها نظائرها على سبيل المثال في سيادة الإغريقية واللاتينية، اللتين تحولتا أيضا إلى لغة الخطاب الثقافي بين أمم المنطقة لقرون عديدة، الا أن ما يميز الآرامية والعربية بهذا الصدد هو استجابتهما العميقة لمنطق الرؤية الثقافية. بمعنى تجاوزهما النقص الذي كان يميز ثنوية المعارضة الحادة بين الإغريقي والبربري (الهمجي) في اليونانية، والحر والعبد في اللاتينية.

فقد سارت الآرامية والعربية ضمن تقاليد الرؤية الكونية، التي وجدت نموذجها الأرفع في الفكرة الإسلامية عن الإله الواحد والأمة الواحدة واللغة الوجدانية الواحدة. ومن الممكن رؤية نموذجها (العصري) في الإنجليزية. الا أن الإنجليزية هي لغة تكنولوجية نفعية. بمعنى انها لغة العصر الكونية لا لغة الضمير الكوني. وهي صفة لا تقلل من شانها بقدر ما انها تشير إلى نموذجيتها المتراكمة في الثقافة الإنجليزية وعولمتها المعاصرة من خلال التجربة الأمريكية، بوصفها تجربة ثقافة كبرى. بمعنى تذليلها الدائم للعرقية والقومية الضيقة في مجرى البحث عن توليف ثقافي للجميع، شكلت النزعة النفعية مقياسها العملي ومعيارها الأخلاقي في نفس الوقت.

أما بالنسبة للعراق فان جوهرية اللغة في بناء صرحه التاريخي، كانت تتطابق مع قيمتها الثقافية. وهي قيمة ذللت تاريخيا إمكانية (النضوج) الفعلي للعرقية. وليس مصادفة أن يتحول العراق إلى مركز الحضارة الإسلامية وبؤرة إبداعها الثقافي. بمعنى تصيره مكانا قادرا على استقطاب مختلف الأجناس والأقوام والأمم في إبداع ثقافة كونية من حيث منطلقاتها وغاياتها. ذلك يعني انه استعاد الأبعاد الرمزية لبرج بابل، لا بالمعنى المقلوب الذي صورته كتب اليهود على انه المكان الذي تبلبلت فيه ألسنة الناس، أي المكان الذي تنوعت وانعزلت فيه أصوات الناس والأجناس بعضها عن البعض، بل المكان الذي تنوعت فيه اللغات وتوحدت في برج الإبداع المشترك للأمم. وهي حالة سوف تعيد إنتاج نفسها عندما تحولت بغداد إلى (دار السلام) و(دار الإسلام)، أي إلى مركز الاستقطاب الثقافي العالمي والمنفتح على الجميع. وهو استقطاب كان يتمثل عربيا (من حيث اللغة) تقاليد العراق الرافدية، واسلاميا (من حيث العقيدة). وفي هذا كان يكمن استمرار التقاليد العريقة للعراق وخصوصيتها في الوقت نفسه، بوصفه كينونة ثقافية.

فقد كان توليف الجديد للعربية الإسلامية الصيغة التاريخية المضافة والمكملة لتقاليد العراق القديمة عن أولوية وجوهرية المكون الثقافي على المكونات الأخرى أيا كان نوعها. وهو الأمر الذي يجعل من غير المعقول ومن غير المقبول إدراك ماهية وحقيقة العراق خارج أو بدون وحدة مكوناته الرافدية العربية الإسلامية. فهي هو وهو هي.

لقد كمنت في وحدة المكونات الرافدية العربية الإسلامية خصوصية العراق الجوهرية، التي جعلت من العربية الإسلامية جوهرا ثقافيا. بعبارة أخرى، إن التوليف الجديد لمكون العربية الإسلامية هو جوهر ثقافي، نعثر على أثره في كل مكونات الدولة والمجتمع والثقافة. إذ لم يكن تعاقب الأمم على الخلافة وتمثيلها السياسي فعلا قوميا أو عرقيا بحتا، بل تركيبة متتالية لإنتاج وتوسيع المدى الثقافي للعربية الإسلامية. كما كانت الآرامية السامية فيما مضى. وذلك لان الانقسام والوحدة في الأفراد والجماعات والمجتمع والدولة والمواقف كان مبنيا على أساس الفكرة المجردة ونماذجها المتنوعة في المدارس. فالاختلاف والوحدة في الفقه والكلام والفلسفة والتصوف والأدب والسياسة والقيم كان مبنيا ومؤسسا له ضمن اتجاهات المدارس والمذاهب والفرق. كما أن الرؤية العقلية والمواقف العملية والرمز والوجدان لم يتحدد أيا منها بالنزوع القومي والعرقي، بل بالمبادئ الكبرى للثقافة الإسلامية واجتهاداتها المختلفة والمتنوعة.

أدت العملية المعقدة لبلورة ما أسميته بالعربية الإسلامية بوصفها جوهرا ثقافيا إلى بروز وترسخ وتوسع ميدان الإسلام الثقافي، أي الإسلام المستند إلى مرجعيات مترابطة تشكل في كلها منظومة تحدد معالم الوجود الطبيعي والماوراطبيعي للفرد والجماعة والأمة والدولة والثقافة. والمقصود بذلك هو تصير نماذج مثلى اقرب ما تكون إلى القيم المنهجية الفاعلة في وضع الاجتهاد المتنوع ضمن الأنساق العامة الكبرى للثقافة، كما نراها على سبيل المثال، في وحدة الرواية والدراية، والمعقول والمنقول، والشريعة والطريقة، والعلم والعمل، وكثير غيرها. فهي ثنويات كانت تعمل ضمت التأثير المباشر وغير المباشر لمبادئ الإسلام الكبرى وحصيلة اجتهاداته النظرية والعلمية. مما كان يؤدي بالضرورة إلى تعميق وترسيخ قيم الرؤية الثقافية (الإسلامية) ومناهجها على غيرها من المكونات. ووجد ذلك سبيله إلى بلورة معالم الفرد والجماعة والأمة بمستوياتها الطبيعية (الوجودية) والماوراطبيعية (الروحية) بقيم الرؤية الثقافية. ومن ثم إفراغها الدائم من ضيق الرؤية العرقية والقومية دون أن ينفيانهما أو يتعارضا معهما.

وبهذا المعنى شكلت العربية لغة وثقافة نموذجا لما ادعوه بالإسلام الثقافي. وهو إسلام كان يتطابق في الواقع مع مضمون الحضارة الإنسانية وثقافاتها المتنوعة. فقد كان مضمونه ثقافيا خالصا. بمعنى أن معاييره ومواقفه كانت تتحدد بالأبعاد العقلية والإنسانية تجاه الوجود والكون والإنسان والمجتمع والأفكار والقيم. وهي أبعاد متنوعة ومختلفة من حيث التأسيس، الا انها كانت تعي نفسها بمعايير التقليد للسلف الصالح والاجتهاد بمقاييسه العلمية والعملية. ذلك يعني انها كانت تحتوي على محددات ثقافية تتمثل تجارب الأسلاف وتعمل بمتطلبات وجودها التاريخي. وهي سمة تميز ذهنية ونفسية الثقافات الكونية العريقة الكبرى. وإذا كان العراق قد احتل مركزها لقرون عديدة في الخلافة الإسلامية، فلأنه كان يحتوي على تاريخ مماثل له في القدم. وهي حقيقة طبعت خصوصيته القائمة في إعادة إنتاج نفسه بوصفه هوية تاريخية ثقافية تمظهرت في مراحل وحضارات متنوعة شكلت العربية الإسلامية نموذجها الأكثر رقيا والأكثر رسوخا.

طبعت العربية الإسلامية العراق بحقائقها الجوهرية، وجعلت منه كيانا واحدا لا يمكن عزل مكوناته المتنوعة. وهو واقع يفرض على الفكر السياسي العراقي المعاصر تمثل هذه الحقيقة التاريخية والثقافية من خلال إدراك وتجسيد الهوية الثقافية المفترضة للعراق بوصفها استعراقا. بمعنى الانطلاق من ضرورة تمثل الهوية الثقافية للعراق. وهي هوية ليست عرقية أو قومية ضيقة، بل ثقافية من حيث مرجعياتها وغاياتها تراكمت تاريخيا وتكاملت ثقافيا من مكونات عدة يصعب حصرها جميعا، الا انها تصب في الإطار العام ضمن ما ادعوه بالمكونات الرافدية العربية الإسلامية. وهي هوية تحتوي بهذا المعنى على مختلف المكونات الحضارية والثقافية للأقوام والأعراق المنتشرة في تاريخ العراق أراضيه، الا انها كينونة واحدة غير مجزءة من حيث محتواها.

فقد تعرضت الهوية العراقية، شأن كل كينونة تاريخية كبرى، إلى تحولات وهزات عنيفة في مجراها العريق. لكنها عادة ما كانت تعيد توليف ذاتها وتفعيلها من جديد مع كل انعطاف حاد. وهي حالة يقف أمامها العراق المعاصر بعد تعرضه لأحد أقسى الاهتزازات العنيفة في تاريخه المعاصر، التي تعادل من حيث مأساتها ما جرى له أثناء سقوط الدولة العباسية في منتصف القرن الثالث عشر. ومع أن الاختلاف بين الحدثين كبير من حيث المقدمات والنتائج، الا انه يشير من وجهة النظر المتعلقة بظاهرة اهتزاز الهوية إلى ماهية الضعف البنيوي الذي أدى إلى اهتزازها الأخير. ولعل السبب الرئيس لهذا الاهتزاز الأخير يقوم في طبيعة الخلل البنيوي الذي أحدثته التوتاليتارية البعثية والدكتاتورية الصدامية بالنسبة للهوية العراقية. إذ أدتا بها إلى التفكك والتفتت والتهشيم والتهميش شبه الشامل لمكوناتها الثقافية. وهو السبب القائم وراء الانبعاث الجزئي والنسبي والقوي أحيانا للصيغ التقليدية السابقة لتاريخ الدولة مثل الطائفية والقبلية والجهوية والمذهبية وغيرها من الأشكال التقليدية المتخلفة عن حقيقة الدولة العصرية بشكل عام والشرعية بشكل خاص. ولا يعني ذلك سوى ظهور (هويات) جزئية ومتخلفة على هامش مكوناتها الجوهرية، كما تظهر الفطريات إلى جوار الجذوع الضخمة للأشجار الحية. وهي (هويات) ضعيفة وهشة من حيث مناعتها على المقاومة، الا انها شرسة ومرهقة في الوقت نفسه. وهي لا تعمل في نهاية المطاف الا على التآكل الذاتي لقواها وقوى الكينونة التاريخية للهوية التاريخية الثقافية للعراق، أي لهويته الخاصة. والسبب في ذلك يقوم في انها هويات لا تتسم بمرجعيات متسامية وكبرى. بمعنى انها لا تمتلك تاريخ ثقافي قادر على الفعل بمعايير ومقاييس التراكم الذاتي الفعال والتلقائية القلقة للبحث عن الاعتدال والعقلانية. من هنا رخاوتها الداخلية. أما التماسك الظاهري لهذه الهويات الرخوية فهو تماسك الخوف والقلق. وهو تماسك لا يتصف بالفضيلة، لأنه مبني على رذيلة الخوف، ومن ثم نفسية العبودية الهلعة أمام مواجهة التحديات الكبرى. وفي كل الأحوال ليس بإمكان هذه الهويات الرخوية أن تبني شخصية حرة ومتماسكة بمعايير الحق والشرعية.

من هنا أهمية الاستعراق بالنسبة لتأسيس الهوية، بمعنى مهمة استعادة المضمون الحقيقي والفعلي للهوية العراقية. وهي مهمة افتراضية لأنها بديلة، وواقعية لان لها مقدمات ونماذج مثلى في التاريخ العراقي نفسه.

وينبع الطابع الافتراضي لتأسيس الهوية الوطنية الجديدة من كونها مهمة ذات أبعاد سياسية واقتصادية واجتماعية وقومية لها أثرها المهم والخطير بالنسبة لمعاصرة المستقبل في العراق. وهو السبب الذي يجعل منها إحدى الفرضيات الكبرى التي تطالب الجميع بالعمل من اجل إثباتها. بمعنى أن الفرضية فيها تقترب من معنى الفريضة. ومن ثم فإن تحقيقها العملي هي المهمة الكبرى لجميع القوى السياسية والاجتماعية من اجل إثبات هويتها الوطنية. وهو الأمر الذي يحدد أيضا قدرتها على تقديم البدائل، بمعنى قدرتها على تجاوز وتذليل التجزئة بمختلف مستوياتها. وفي هذا تكمن واقعيته، بمعنى انها ممكنة. أما شروط تحقيقها فيفترض وجود عقد اجتماعي جديد يتجاوز ويذلل ذهنية التجزئة ونفسية الغنيمة السائدة عند اغلب القوى السياسية العراقية الحالية. وهي ظاهرة (طبيعية) في ظروف العراق الحالية بسبب الخراب الشامل لبنية الدولة والمجتمع المدني وفكرة الحق وتقاليد العمل السياسي العلني والديمقراطية الاجتماعية. الا أن ذلك لا يقلل من عدم شرعيتها ومنافاتها لأبسط مقومات الحق والإخلاص في الانتماء الوطني الصادق. وهذا أمر لا يمكن بلوغه دون الثقة بالمجتمع والعمل من اجله استنادا إلى فكرة الحقوق والشرعية. مما يفترض بدوره رفع التصورات القومية والعرقية والطائفية والدينية إلى مصاف الرؤية الأخلاقية. بمعنى الاسترشاد العملي بمرجعية تتطابق مع فكرة الوطنية. انطلاقا من أن الوطنية هي موقف أخلاقي أيضا.

للوطنية في العراق مرجعية لها مقدماتها الواقعية في تاريخه الخاص، بوصفها صيرورة ثقافية قادرة على تقبل مختلف القوميات والأعراق والأديان. بل أن التجربة العراقية المعاصرة للتوتاليتارية البعثية والدكتاتورية الصدامية تبرهن بيقين قاطع على أن الخروج عن هذا النموذج المتسامي، أو عن هذه المرجعية التاريخية الثقافية المتراكمة في العراق، يؤدي بالضرورة إلى الخراب والموت الفاضح. كل ذلك يبرهن على أن المرجعية الثقافية هي النموذج الأعلى في تاريخ العراق. وفي هذا تكمن مقدمة ما ادعوه بضرورة أن يكون الاستعراق الحد الأقصى للقومية.

وليس المقصود بالحد الأقصى هنا سوى حد التلقائية الضرورية للتطور الاجتماعي في الرؤية القومية للقوى الاجتماعية والحركات الفكرية والأحزاب السياسية. بمعنى الانطلاق في تناول مختلف قضايا الفكرة القومية في العراق من زاوية تلقائيتها الاجتماعية والثقافية بالنسبة لمعاصرة المستقبل في العراق، وليس حصرها في إطار عرقي أو قومي ضيق. وذلك لان تلقائية التطور الفعلي للمجتمع المدني وتقاليد الشرعية والديمقراطية السياسية سوف يؤدي بالضرورة إلى إعلاء مرجعية الرؤية الثقافية.

وهي الفكرة التي تتمثلها فلسفة الاستعراق بمعناها الوطني والقومي والديني والاجتماعي. بمعنى تأسيس الأبعاد الثقافية للاستعراق في مجال الوطنية والقومية والدين والاجتماع. وذلك لان لكل منها بعداً ثقافياً يمكن تحقيقه من خلال غرس الفكرة القائلة، بان القومية والعرق هما عوارض جزئية ومكونات نسبية في العراق. غير أن ذلك لا يعني الدعوة لتعارض مفتعل مع الامتداد القومي لمن يعيش فيه، العرب للعروبة والكلد آشوريون للسريانية، والأكراد للكردية والتركمان للتركية وما شابه ذلك. وهي فكرة ينبغي أن تنبع من إدراك ثقافي لا من منطلق السياسة العابرة ومصالح الاحتراب فيها. وبهذا المعنى يمكن النظر إلى ما جاء في إحدى مواد قانون الإدارة المؤقتة للعراق (أو ما يسمى بالدستور المؤقت) من أن العراق بلد متعدد القوميات والشعب العربي فيه جزء من الأمة العربية عوضا عما كان سابقا من أن العراق بلد عربي، هي فكرة لا تتصف بالتجانس وتتعارض مع المحتوى التاريخي والثقافي والفعلي للعراق من جهة، كما انها تعيد إنتاج الرؤية القومية والعرقية الضيقة. وذلك لان عروبة أو عدم عروبة العراق لا تحددها مادة قانونية. من هنا كان من الضروري أما ذكر الجميع أو عدم إدراج الجميع. وفي كلتا الحالتين لا تتعارض مع مضمون الهوية الثقافية للعراق، بوصفها هوية رافدية عربية إسلامية.

صورة البطل!
من كارلايل إلى توينبي وفلسفة النظام الديكتاتوري

بشار الشداد الحياوي

تندرج جميع التصورات الفلسفية للتاريخ تحت نمطين أساسين النمط المثالي: الذي انبثقت منه كل التصورات المثيولوجية والاسطورية التي تقيم وزناً كبيراً للفرد البطل او العبقرية الفذة لعملية الحراك التاريخي - مهماً كانت صفة ذلك البطل وعقيدته -.

والنمط المادي: الذي يلتمس قوانين حركة التاريخ في الواقع الاجتماعي وتنتهي إلى أن الشعوب هي التي تصنع اقدارها محكومة بالعوامل الاقتصادية.

والذي يهمنا في بحثنا هذا، النمط المثالي، والذي تعتمد عليه، مع الأسف، أغلب الدراسات التاريخية المنهجية والاكاديمية المقيدة بفلسفة النظام الحاكم.

بدأ النمط المثالي عام ١٨٤٠م بعد القاء (كارلايل) محاضراته عن الأبطال والبطولة ودورهما في التاريخ.

فالتاريخ في نظر (كارلايل) هو مسيرة الابطال العظماء، وسجل منقبي لأعمالهم الاسطورية التي تشكل مادة ثرية لهواة السير والتراجم. ويعتقد (كارلايل) أن كل الفضل يعزى إلى ابطال من نوع خاص اعدتهم العناية الالهية اعداداً خاصاً كي يجعلوا للبشرية معنى وبدونهم ليس إلا الفوضى.

لقد استغل (كارلايل) إلمامه الواسع بتاريخ البشرية في تقديم نماذج لأبطال الأساطير، وكان أخطر ما أعلنه (كارلايل) أن تقديس البطل تعبير عن غريزة وجبلة في الطبيعة البشرية.

وبعد نحو قرن من انتشار آراء (كارلايل) وبرغم التقدم في مجال المعرفة وتطور العلوم الاجتماعية، ظهر (ارنولد توينبي) المؤرخ البريطاني مقدماً دراسته للتاريخ مؤكداً على مفهوم البطل والبطولة، متجاهلاً ظهور المادية التاريخية كثورة في فلسفة التاريخ.

ولم يختلف (توينبي) عن (كارلايل).. في انحيازه التام لدور البطل في صنع التاريخ، ورفضه اتجاه الفلسفة الاجتماعية في تفسير التاريخ.

ولكن (توينبي) اضاف في فلسفته مع البطل (الصفوة المبدعة) وهي على شاكلة البطل، ليس لها سمات البشر العاديين بل تفوه بالعقل والصبر والمجالدة والقوة.

وعلى الرغم من أن آراء (توينبي) لا تخلو من اعتراف بأهمية البعد الاجتماعي في تفسير التاريخ، لكنه يرى أن افعال الأفراد لها الثقل في عمليات الحراك الاجتماعي، وهؤلاء الافراد هم، البطل والصفوة المبدعة، التي اقرب ما تكون إلى شاكلة البطل، وتقوم بدور مساعد في انجاز مهام البطل التاريخية.

ويبقى للبطل التأثير الفاعل، وهو العامل الحاسم في التحولات التاريخية على يديه تتم الطفرات الحضارية.

ولاثبات نجاح نظريته وفلسفته التاريخية استعار (توينبي) هذه النظرية وطبقها على حياة، عيسى ومحمد، محاولة منه لتأكيد دور البطل والبطولة في صنع التاريخ.

لقد تناسى (توينبي) أن الشعوب والجماعات - لا الابطال - هي صانعة التاريخ، وما جاء به ما هو الا تكريس لعبادة الشخصية وابراز دور القادة الابطال على حساب دور الشعوب.

استثمرت نظرية (توينبي) وفلسفته التاريخية ومن قبله نظرية (كارلايل) الانظمة والحكومات الارستقراطية وحديثاً الانظمة الديكتاتورية في المجال السياسي والثقافي والتربوي، وذلك لأنها تعزز دور القائد البطل - الحاكم - في احداث المنجزات العظيمة والتحولات الحضارية ومعه (الصفوة المبدعة) أو النخبة من افراد عصابته أو حزبه الحاكم.

لذلك نجد أن النظام العراقي المنهار احتفى بذكرى المؤرخ - ارنولد توينبي - بحجة أن للرجل مواقف مساندة للقضايا العربية المصيرية وداعية للحضارة العربية والوحدة العربية من خلال فلسفته في (التحدي والاستجابة) التي اضافها لنظريته التاريخية.

لقد كانت آراء (توينبي) وفلسفته تنسجم مع فلسفة حزب البعث ونظام صدام الذي اقام حكمه على ركيزة دور البطل والنخبة المبدعة في صنع الأحداث التاريخية.

كان صدام يجد نفسه ذلك البطل الذي بشر به (توينبي) باعتباره البطل الملهم والقائد الفذ الذي اعدته العناية الالهية بصنعه الأحداث التاريخية كي يجعل للحياة معنى.

وبسبب تأثير ثقافة السلطة التي اخترقت الوعي العراقي وعبأته لعبادة الابطال والرموز الاسطورية، حتى اصبح المجتمع العراقي غارقاً في نموذج البطولة.

ولكي يملأ البطل التاريخي بفرديته وشخصيته كل زوايا الحياة ومفرداتها وماضيها وحاضرها جعل من نفسه امتداداً طبيعياً للأبطال مثل نبوخذ نصر وصلاح الدين الأيوبي وغيرهما.

حاول النظام الديكتاتوري إلصاق صورة البطل بذهنية المواطن لكي يبقى دائماً متعلقاً بالبطل المنقذ صاحب القدرات الفائقة والعقلية الخلاقة والشجاعة الخارقة، فيشدو له ويتغنى به ويبتهل اليه.

لقد كانت صورة البطل احدى آليات نظام صدام الديكتاتوري الذي قام على الارهاب والدمار والحروب دون أن يفعل فعلاً بطولياً سوى القتل الجماعي.

لقد ضجر الشعب العراقي من نعوت الشخصية البطل وأوصافه، وهو اليوم يبحث عن المشاركة الجماعية في بناء عراق ديمقراطي متحرر يسهم الجميع في اعماره وبنائه.

النظام الشمولي وخراب المؤسسات المدنية

كاظم الحسن

مفهوم الدولة الحديثة لم يتبلور في المجتمعات التقليدية وما زالت مفاهيم مثل الدستور، البرلمان، والاحزاب الحرة غامضة وضبابية عند الكثيرين. وكان الشوط الاعظم من حياة هذه الشعوب قد مارسه ما سمي بـ (الضباط الاحرار)،ونقيضه الاحزاب السرية التي تعيش في الاقبية والسراديب والكهوف وفي احسن الاحوال في السجون.

فماذا تجني الشعوب من الثكنات العسكرية والسراديب غير الافكار الاحادية والشمولية والتعصبية؟ بمثل هذه الاجواء لا ينشأ نظام القانون والشفافية والنزاهة بل الفساد الإداري والرشوة والمحسوبية، فهذه الظواهر هي جزء متمم للثكنة العسكرية التي تقود الدولة والمجتمع.

فكيف يستقيم الأمر إذا كان الخبراء يقود الكل؟!

هل يمكن لمجموعة من العسكر او حزب مهما حسنت النوايا أن يقود عملية معقدة، وهي الانتقال من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث المفتوح المتعدد سياسيا وثقافياً عبر آلة التسلط والاستبداد؟

وازاء القمع والكبت السياسي لن يعترض أحد على منظومة القرابة العشائرية في مفاصل الدولة واجهزتها ووضعها موضع مساءلة، لأن معايير النسب والدم هي الفيصل في تبوئ المناصب وليس الكفاءات والمؤهلات العلمية.

هذا الأمر يؤدي إلى انعدام الحراك الاجتماعي وتتوقف التنمية الاقتصادية والسياسية والبشرية فتتآكل الوحدات الاولية للمجتمع المدني وتحل بدلاً عنها الاشكال والتكوينات البدائية والتي تتمثل في القبلية والعرقية والطائفية والمناطقية.

وكما لاحظنا في المثال العراقي، فحتى بعد انهيار نظام القمع والاستبداد، عملت تلك التكوينات على الصورة نفسها على الرغم من ما يغلفها من اغطية او اقنعة، لاننا هنا نتحدث عن نظام اجتماعي وسياسي تكون بفعل انهيار مقومات وأسس المجتمع المدني.

ما زال الكثير يتحدث عن النوايا والمشاعر والقيم بمعزل عن التأثيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وهؤلاء ينظرون إلى الاحداث من خلال التوصيف الشخصي القائم على الرغبات والأمنيات، فيقعون في فخ نظرية المؤامرة الخارجية.

يعتقد في الاوساط التقليدية إن الحاكم كلي القدرة أو ثمة قوة خفية وراءه، والناس يتساءلون كيف أن شخصاً ما يدير دولة ويحكم الملايين بالرغم منهم، من دون معرفة أن الاعداد الكبيرة من البشر بلا مؤسسات المجتمع المدني هي مجموعة كمية قواها مشلولة ومقيدة وغير قادرة على الحد من تعسف الدولة وطغيانها.

إن الفجوة بين الدولة والمجتمع تعمل على تدمير الاثنين معاً لحساب الحاكم المستبد في الماضي. أما في العصر الحديث وبسبب التطورات التاريخية والاقتصادية والعلمية وتكنلوجيا المعلومات وثورة الاتصالات، فقد اصبح من العسير على الحاكم اغتصاب السلطة وعزل المجتمع عن العالم.

إن القهر والخوف والاستبداد يخلق مجتمعاً غير قادر على التعامل مع منتجات التكنلوجيا، وهذا ما واجهته اوروبا في عصور الاقنان والعبودية، فالعبد غير قادر على الابداع والخلق، ولا بد من الحرية.

الديمقراطية هي ام الصناعة وحاضنتها، على الرغم من أن بعض الدول تحاول أن تفصل التنمية الاقتصادية عن السياسة. وهذه المحاولات بائسة لتجميل الدكتاتورية باسم التراث والاصالة، إنها قضية كونية تتعدى العرق والدين والهوية وتوحد الجنس البشري.

النظام السياسي في العالم يواصل السعي في الدمج ولا يمكن العمل بمعزل عنه فلا بد من التفاعل والتكامل والتجانس والتعايش فالقوة وحدها لا تكفي لفرض الإرادة على الآخرين، ولو كان هذا الامر صحيحاً لبقي الاتحاد السوفيتي والدول التابعة له في مسيرة التسلح والنظام الشمولي، ولاسيما إن تلك المنظومة امتلكت ترسانة نووية غير مسبوقة في التاريخ.

التطور الصناعي في الاتحاد السوفيتي أهمل التنمية البشرية، وتضخم في الصناعة العسكرية، في حين نعرف من التجربة التاريخية أن التطور الصناعي يخلق وعياً تقنياً يكسر الايديولوجيات التقليدية التي تحد من التطور.

على الرغم من أن الفترة الانتقالية في المجتمعات هي مخاض صعب لا سيما إنها تدمر الكثير من العلاقات والتصورات،

إلا أن العملية كلها تحتاج إلى المجتمع والدولة معاً من اجل الخروج بأقل الخسائر، وغالباً ما تكون ناجحة في المجتمعات التاريخية لأنها تتعامل مع الحدث والمتغيرات من خلال العقل النقدي والنظرة الموضوعية والأفكار الحرة. إن خلاص المجتمعات الحرة يأتي من داخلها وهذا هو فعل الحرية، حيث يخلق البدائل، ولا يتوقف أمام المعضلات والازمات التي تواجهه.

إزاء ذلك نرى أن المجتمعات التقليدية في مراحل التحول والازمة ترنو الابصار باتجاه المخلص، سواءً كان خارج التاريخ أو في داخله، في حين أن الخلاص هو خلاص مؤسساتي وليس فردياً.